# الإنســـان
# مخـلوق مسئول

obeikandl.com

obeikandl.com

# الإنسان

## مخلوقٌ مسئول

وفي المسئولية تكليفٌ، وتشريفٌ، وتكريم.

الإنسان قد خلقه الله..

وجعل من خَلْقِهِ تعريفاً بخَالِقِهِ.

وبُرهاناً على قُدرته وحكمته.

وقد شاء الله أن يتلقّى الإنسانُ عن الله ما يُحدِّدُ مسئولية، ويُبيِّنُ رسالته، بعد أن زوَّده بالأسباب التي تُعينه ـ في شتَّى المجالات ـ على النهوض بهذه المسئولية.

وجعل له ـ من التكريم والتفضيل ـ ما يُميِّزُه على كثيرٍ من خَلقه.

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾.[1]

فهو مخلوقٌ مسئولٌ، وفي المسئولية تكليف من خَالقه.

وفي النهوض بما كُلِّفَ به وبُلِّغ تشريف، أيّ تشريف.

إنه ليس كَمًّا مُهْملاً ـ لا تُناطُ به واجبات، ولا تُحدَّد له حقوق ـ من حيث خَلْقه.

فإنْ تخلّى عن مسئوليته، أو فرَّط فيها، فقد رضيَ لنفسه أن يكون

---

(1) الإسراء: ٧٠.

موضعَ مساءلة ومحاسبة؛ حيث فرَّط فيما تميَّز وكُرِّم وفُضِّل عليه.

إنه مسئولٌ متضامن مع غيره؛ لأنه اجتماعي بفطرته وطَبْعِه.

مسئولٌ عن الكلمة التي تُقال، والعملِ الذي يُعمَل.

بل مسئولٌ في نفسه عن النيَّة والقصد؛ لأنَّ الأعمال إنما تُوزَن عند الله بالنيَّات والمقاصد.

« إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى... »[1]

والذي يسأله عن ذلك ربُّه، وهو أعلمُ به ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾[2]

وذلك أصلٌ أصيلٌ في النهوض بالمسئولية على نحوٍ مشروعٍ، يُحقِّق صلاحَ المجتمع، ويحفظ كرامته.

لذا كانت فريضة الأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكر، مسئولية تضامنية، يقومُ بها الإنسانُ متضامناً مع غيره؛ ليسلم المجتمع كله من شُيوع الفاحشة والمنكر والبغي.

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.[3]

لذا كان الإنسانُ ـ أوَّلاً ـ مسئولاً عن إصلاح نفسه.

ولا يُقْبَل منه ـ أبداً ـ أن يُعَلِّقَ خطأه على غيره، بعد إعذارٍ وإنذار.

---

(1) البخاري: كتاب بدء الوحي.

(2) الملك: ١٤.

(3) آل عمران: ١٠٤.

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾.[1]

ومسئولية الإنسان عن نفسه ـ في صميمها ـ مسئوليته مع غيره، متعاوناً على البرِّ والتقوى، لا على الإثم والعدوان.

إنه عضوٌ يؤدِّي وظيفته في جسدٍ واحد، يتداعى له سائرُ الأعضاء إنْ هو أُصيب بما قد يُلحق الضرر بغيره.

فسلامته سلامة له ولغيره.

هكذا شبَّه الرسول ﷺ أمرَنا بـ « الجسد الواحد »

كما شبَّه أمرنا جميعاً بالرَّاكبين في سفينة واحدة

« بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ».

قال الرسولُ ﷺ:

« فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا »[2]

ومن هنا يتضح لنا أمام مَنْ يكون الإنسان مسئولاً.

---

(1) فاطر: ١٨.

(2) البخاري: كتاب الشركة.

إنه مسئول أمام ضميره مسئولية أخلاقية تُوزَنُ عند الله بميزانٍ دقيق.

فمَن يعرف ربَّه يوقِنُ أنَّ ما يُغلق على أعين الناس، لا يُغْلَقُ على علم الله.

ولا يظنُّ ظَانٌّ أنَّ مسئولية الإنسان أمام ضميره شيء هَيِّنٌ أو يسير، بل إنَّه جَدُّ خطير.

إذا لم تُرَبِّ الأُمَّةُ أبناءها ليكونوا ذوي ضمائر حيَّة يقظة، فلن يتحقق لها ما ترجوه من أَمْنٍ، وما تنشده من استقرار.

فإنَّ الجريمة الْمُبَيَّتَة في نفس صاحبها لا يَئِدُها إلاَّ يقظةُ ضميره، وخشيته من ربِّه.

فمسئولية الإنسان أمام ضميره هي مسئولية المجتمع كله أَوَّلاً في تربية الإنسان على نحو يعرف ربَّه ويخشاه.

وفي تحقيق ذلك تتضافر أجهزةُ الدولة كلُّها ولا تتناقض، وتتوحَّد وسائلُها ولا تتنافر.

الوسائل: التعليمية.. والثقافية.. والاجتماعية.. والأمنية.

لأنَّ رصيدَ الأمة الحقيقي في إنسانها.

الإنسان الصالح تصلح به الأمور الفاسدة.

والإنسان الفاسد تفسد به الأمور الصالحة.

ومن حَصَر الأممَ في الأخلاق لم يجانب الصواب.

فإنَّ الأُمَمَ الأخلاق ما بقيت  فإن هُمُوا ذهبت أخلاقُهم ذهبوا

والأخلاق ليست سَمتاً مظهرياً، وإنما هي عملٌ، وَجَدٌّ، وطُهْرٌ، وتعاونٌ، وبرٌّ.

هي حياة أمة ناهضة ترى حياتها في عِزَّتها، ومواتَها في الرُّكون إلى غيرِها.

فإذا قيل: « مسئولية الإنسان أمام ضميره » لم نُخْلِ الأمة من مسئوليتها.

فمسئوليتها أوَّلاً في إحياء هذا الضمير بشتَّى الوسائل، دونَ خَلَلٍ أو تقصير.

والأخلاق ليست فلسفة نظرية لا تُرَى حقيقتها في واقع.

إنها ضوابط وحدود، تراها في سلوك الإنسان: في البيت، وفي الشارع، وفي المدرسة والمصنع.

تراها ـ في كل شيء ـ فطرية لا تكلُّفَ فيها ولا عُسر.

بحيث تصبح عادة راسخة في مظهر الأمة وحقيقتها.

وتستطيع أن تحكم على أخلاق الفرد والأمة ـ في يُسْرٍ ـ من واقع عمليٍّ، لا من فلسفة نظرية.

خُذْ مثلاً الأخلاق في الشارع، وكيف يقع التعامل فيه.

كم يؤدِّي تجاوز ضوابط الأخلاق وحدودها فيه إلى وَيْلاتٍ وكوارث ؟

إنَّ الإساءة فيه مظهرٌ من مظاهر سُوء الأخلاق.

إذا كانت إشارة المرور "حمراء" فإنَّ قَطْعَ الإشارة ـ ولو كُنْتَ

وحدك ـ سُوء خُلق، قبل أن يكون مجرَّد مخالفة تُدفَع أو لا تُدفع.

إنَّ هذا التجاوز قد يؤدِّي إلى التجاوز في غيره.

سُوء خَلق؛ لأن صاحبه لم يلتزم بالضوابط والحدود التي تحفظه وتحفظ غيره.

وإذا رأينا غَيْرَنا يقف عند الإشارة الحمراء ولا يتحرك ـ ولو كان وحده ـ فذلك خُلُقٌ؛ لأنَّ صاحبه التزم بالضوابط والحدود.

ومن الخطأ الشائع أن نقصر الأخلاق على جانب في الحياة دون جانب.

ومن الخطيئة أن نخطئ في فَهْم ديننا، ولا نعرف قيمة الأخلاق فيه.

إنَّ أخلاق هذا الدِّين مستمدَّة من عقيدته.

وعقيدته ـ كما نعلم ـ فيها من الثبات والقوة والرسوخ ما يُعطي الأخلاقَ ـ نَفْسَها ـ رُوحَ الثبات والقوة والشمول.

فلا تقصر الأخلاق على جانب من الحياة دون جانب، بل هي ـ في كل تصرُّف ـ للإنسان صَغُرَ أو كَبُر.

وخِيار الناسِ أحسنهم أخلاقاً.

والأخلاق ليست سلعة تُباع وتُشتَرى.

إنها جوهر أصيل يثقُل به الميزان يوم القيامة.

وقد يُدرك الإنسان بحُسن خُلقه ما لا يُدرك بصيامٍ وقيام.

والأخلاق الراسخة تمنح صاحبَها رُوحَ التجرد من المنافع، والتخلص من الرِّياء الكاذب.

فلا ينهى الإنسانُ عن خُلقٍ ويأتيَ مثلَه.

كما لا يتَّخذ من دعوى الأخلاق سبيلاً للكسب الرخيص، واستغلال السُّذَّج والبسطاء.

وإنما تقوم الأخلاق الصادقة ـ في نفس صاحبها ـ مقام المجاهد في ميدان الشرف والبسالة، وهو يدافع عن غايةٍ راشدة.

يرفع سيفَه ويُخفضه؛ استجابةً لمبدأ..

ويُلقي بنفسه في أتُونِ معركة قد يجودُ فيها بنفسه؛ انتصاراً لإيمانه وخُلقه.

وكذلك الأخلاق، قد تدفعك إلى أن تبذل كُلَّ رخيص وغالٍ، ولا تستطيع أن تخرج عن حكمها أو تجاوز حدودها وضوابطها.

فمسئولية الإنسان أمام ضميره محاكمة لأخلاقه.

وأخلاقه ليست بعيدةً عن محاكمة الناس.

وهي تُرى في واقع مشاهد.

فإذا رأيتَ خللاً في واقع فاعلم أنَّ الأخلاق قد غَدَتْ سلعةً تُباعُ وتُشتَرى.

إذا رأيت عمارةً شاهقة في شارع لا يحتملها بمرافقه، فأعلم أنَّ تعاوناً وتآمراً على دمار الأخلاق قد وقع، قبل أن تقع العمارةُ على مَن فيها، وأنَّ جُيُوباً قد امتلأت، وهي تحسب أنها اغتنتْ بما صنعت.

ولا تسل عن النتائج حينما يستهين الناسُ بضوابط الأخلاق وحدودها، في أيِّ شأنٍ كان.

وهنا تأتي المسئولية أمام الناس والمجتمع. أو قُلْ: مسئولية الناس والمجتمع

الذي يحافظ على هويته، ويدرك رسالة أُمَّته، ويرى عِزَّهُ في عِزِّهَا.

لا بالأغاني والأناشيد.. بل بالأخذ بأسباب القوة والنهوض، وإيثار الأخلاق التي تَبْقَى بها الأمم، وتُجْتَازُ الْمِحَن والخُطوب.

إنَّ قيمة الإنسان في تحمُّل المسئولية.

وهي ذات جوانب متعددة، تقتضي مراجعة دائمة متصلة؛ لتهيئة الإنسان وتربيته وإعداده.

مراجعة لوسائلنا، ومؤسساتنا، وسلوكنا، وضوابط حياتنا كلها، دون ترخُّص أو إبطاء.

إنَّ هذه التهيئة والتربية والإعداد والتدريب، تقترن بولادة الطفل وتنشئته.

وينشأ الطفلُ ـ فينا ـ كما عوَّدناه، وكما يرى أُمَّه وأباه.

وينشأ ناشيءُ الفتيان فِينا  على ما كان عوَّدَه أبوه

وقد رأينا رسول الله ﷺ يُعنى بتربية الطفل وتأديبه في:

موطن مأكله ومشربه..

وفي ميدان رياضته ولَعِبه..

وفي دخول المنزل وخروجه..

وفي أوقات نومه وصحوه..

وفي معاملته مع غيره.

رأيناه ﷺ يُعِدّه لتحمل المسئولية من صِغره.

وقد رأينا ثمرةَ هذا الإعداد في كل ميدانٍ من ميادين الحياة.

وقد ضرب لنا هذا الْمَثَلَ في ذلك بتوليةِ الشباب مسئولياتٍ كِبار وهم دون الثامنة عشرة من عمرهم.

وَلَّى "أسامةَ بنَ زيد" قيادةَ جيشٍ وفيه أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ.

ورأينا الصِّدِّيقَ ـ رضي الله عنه ـ يمشي في رِكابه بعد وفاة الرسول ﷺ، وهو يودِّعه ويستأذنه في بقاء عمر ـ رضي الله عنه ـ معه في المدينة؛ لمواجهة كثيرٍ من المصاعب بعد موت رسول الله ﷺ.

بل رأينا مَن هُم دون سِنِّ التكليف يُسرعون إلى مواطن البأس؛ ليجاهدوا مع المجاهدين !

وعندما أَعْفَاهُم الرسولُ ﷺ؛ لصِغَرِ سنِّهم، استعانوا ـ صادقين ـ بالبُكاء؛ ليأذن لهم الرسول ﷺ أنْ يكونوا مُقاتلين مع غيرهم في ميدان الشرف والفداء !!

وكان مِن هؤلاء شقيق "سعد بن أبي وقَّاص" الذي أَذِنَ له الرسول ﷺ ـ بعد رجاء وبكاء ـ فكان من نصيبه شهادة في سبيل الله، لا تُنَالُ إلاَّ بشرف القصد وعِظَمِ البلاء.

والله يُؤتي فضله من يشاء.

ونرى الرسولَ ﷺ لا يُعفي من المسئولية أحداً في أيِّ موقعٍ كان.

لأنَّ الإعفاءَ من المسئولية إعفاء من تكريم وتشريف.

ففي الحديث المتفق عليه، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: « أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ

عَنْ رَعِيَّتِهِ.

فَالأَمِيرُ - الَّذِي عَلَى النَّاسِ - رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.

وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ.

وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ.

وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ.

أَلاَ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ »[1]

فالكُلُّ مسئولٌ في أيِّ موطن كان.

وفي المسئولية تشريف وتكليف وتكريم.

والأمم الناهضة هي التي تهيئ أبناءَها لذلك جيلاً بعد جيل.

فإنَّ المسئولية وتحمُّلَها لا تجعل في حياة الإنسان مجالاً لفراغٍ تتبدَّد فيه الطاقات، وتُنفَق الساعات.

المسئولية لا تجعل الشاب - في حيويته وقوته - طريدَ يأسٍ أو إحباط، أو صريعَ نَزَوَاتٍ وشهوات، إذا لم يُشغل بجد أو يُكلَّف بعمل، بل إذا لم يفتح أمامه باب الأمل في المنافسة على نتائج الجد والعمل، بحيث تكون همَّتُه - دائماً - عاملة للصعود إلى أُفق أعلى.

ولا أودُّ أن أضرب الْمَثَلَ بما نراه في واقعِ الحياة عند أقوام أدركوا هذه الحقيقة - إبقاءً لمجد أُمَّتهم وعزَّتِها، فجدَّدوا - بشبابهم - حياةَ أُمَّتهم، وأنقذها من تخلُّفٍ ورُكود.

لقد فعل ذلك "حزبُ العُمَّال" حين اختار رئيساً له، استطاع أن يُعيدَ

---

(1) مسلم: كتاب الإمارة.

للحزب قوَّته ونشاطَه، وعودته إلى القيادة بعد طول انتظار.

وقبل ذلك "حزبُ المحافظين" عندما اختار لنفسه شاباً أصغرَ سِنًّاً من رئيس حزب العمال؛ طمعاً في أن يبقى الحزب منافساً قوياً في حلبة صراع دولي لا يصمد فيها إلاَّ القادرون المدرَّبون، ولا مكان فيه للضعفاء أو الغافلين المغفَّلين، الذين يتعلَّقون بالأماني ولا يعملون.

الإنسان مسئول أمام ضميره. والضمير يحتاج إلى تربية، ومُناخ، وقدوة صالحة، وحُسنِ تدبر في العاقبة والمصير.

مسئول أمام مجتمعه ـ والمجتمع يحتاج إلى تعاون وتماسك وترابط؛ للقيام بمسئوليته، وسؤال مَن يعتدي ويحيد.

مسئول أمام ربِّه.

والشعورُ بهذه المسئولية يحتاج أنْ نَعِيَ عن الله ما كُلِّفنا به، وَمَا دعانا إليه، وما حمَّلنا أمانته وحاسبنا عليه. لنكون كما أراد الله لنا ـ بضوابط وصفات ـ خيرَ أُمَّةٍ أُخرجت للناس.

﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾.[1]

***

(1) التوبة: ١٠٥.

obeikandl.com